بين الرافعي وطه حسين تحـ

يعد الأديب مصطفى صادق الرافعي في الطليعة من الكتاب والأدباء الذين أثروا بفكرهم وإبداعهم الحياة الأدبية والفكرية في مصر والعالم العربي في النصف الأول من القرن العشرين .

وهو يمثل مع «عباس العقاد»، و «طه حسين» الريادة الحضارية في محاولة النهوض بالعقلية العربية في العصر الحديث، وإعادتها إلى دائرة الضوء المتوهجة التي انتشرت أشعتها .. وعمت أرجاء الأرض في عصور ازدهار الحضارة الإسلامية .

ولكل من هؤلاء الثلاثة منهجه في التفكير، وطريقته في الأسلوب، وأثره فيمن حوله، ولكل منهم شيعته.. ومريدوه، ودوره الكبير في الحركة الثقافية، والحياة الأدبية في مصر والعالم العربي في العصر الحديث .

وكان الرافعي أشدهم ارتباطا بالتراث العربي، وأكثرهم دراية واقتناعا به، وهو ينفرد بملكة إبداعية ابتكارية في صياغة الأساليب، مع ارتباط شعوري صادق بكل مقومات التاريخ الإسلامي، وبالمصدرين الرئيسين للدين الإسلامي وهما القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

وكتابه «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» .. يظل منارة مضيئة تموج أشعتها الهادية في كل زمان ومكان، تهدي العقول الحائرة، وتقوي العزائم الفاترة، وتدفع عن حياض الدين غزوات المغيرين، وشبهات الملحدين، ومؤامرات المنافقين .

ويعلل الأستاذ حسين حسن مخلوف «شدة الرافعي في نقده، وقوة شكيمته في خصومته العلمية والنقدية .. وعدم استسلامه في معاركه النقدية بما قاله أحد القراء عن الرافعي: «إنه ناقد صعب» فأجاب قائلا: لشعوره بالتمكن من مادة اللغة العربية وثقته بنفسه، وفهمه لأسرار البيان العربي شعرا ونثرا، ولدراسة أدوات الأدب العربي لتكون صناعة القلم سليمة لديه .

ثم إنه لا يكتب رأيا إلا إذا امتحنه على آداب القرآن الكريم، وأصول الإسلام فما وافقها فهو رأيه، وما خالفها فهو بريء منه[1] .

... تحت راية القرآن

بقلم: د . صابر عبدالدايم
مصر

تحت راية القرآن في قلب الميدان:

وكتاب «تحت راية القرآن» ميدان لمعركة دارت رحاها بين قطبين رائدين هما «الرافعي» مدافعا عن تراث العربية، وعن كثير من ثوابت الإسلام ضد آراء جريئة، وحقائق مغلوطة، وشبه مغرضة آثارها د . طه حسين في كتابه «الشعر الجاهلي» في إصداره الأول عام ١٩٢٦م.

ولنتساءل: لماذا وضع الرافعي قضية الانتحال التي تعد العنصر الأساسي في كتاب د . طه حسين، والقاسم المشترك بينه وبين الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن» ؟ لماذا جعل الرافعي مناقشة هذه القضية وتحريرها تحت راية القرآن، وما علاقة القرآن بقضية الشعر الجاهلي ؟

إن منهج الرافعي الذي ينطلق من المصدرين الكبيرين: الكتاب والسنة: هو المحرك الأول لهذه القضية .

والبعد الديني لا الأدبي .. هو في المقدمة من أبعاد قضية «الانتحال» في الشعر الجاهلي، وهو المحرك الأول لهذه القضية .

ولنتأمل النتيجة التي انتهى إليها د . طه حسين متبعا فيها آراء كثير من المستشرقين .. وهي نتيجة سلبية لا تصدر من باحث متمكن من مقومات تراث الأمة العربية والإسلامية، وفي مقدمة هذه المقومات الإيمان بقداسة النص القرآني، وبأنه قطعي النص والدلالة، يقول د . طه حسين:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة».

قال د . طه حسين «ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعا من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن من جهة أخرى».

والرد على هذه الفرية التي تقدح في قداسة النص القرآني .. لم تقتصر على الرافعي فقط بل تصدى لها كثير من العلماء وفي مقدمتهم: «الأمير شكيب أرسلان، والشيخ محمد الخضر حسين، ومحمد فريد وجدي، و د . محمد أحمد الغمراوي، والشيخ محمد أحمد عرفه، وغيرهم .

ومن الذين قاموا بالرد المباشر بعض النواب في البرلمان في هذا الوقت ومنهم النائب الأستاذ عبد الخالق عطية في جلسة يوم الاثنين ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٦م .

وفي رده إثارةٌ لقضية تربوية يجب أن نقتدي بها في مدارسنا وجامعاتنا ومعاهدنا العلمية .. وما أحوجنا إليها في هذا الوقت الذي كثر فيه المتقولون والأدعياء .

يقول النائب معلقا على ما أثاره د.طه حسين من شكوك ومزاعم .. وكذب وتلفيق حول القرآن، «إننا إذ نسلم أولادنا للحكومة ليتعلموا في دورها نفعل ذلك معتمدين على أن بيننا وبينها تعاقدا ضمنيا على أن الديانات محترمة، لا أقول تعاقدا ضمنيا فقط، بل صريحا، لأن الحكومة تعنى بتعليم الدين في مدارسها، وتضعه في مناهجها .

وإذا كان الأمر كذلك، فعلى الذين يريدون أن يحرقوا بخور الإلحاد أن يحرقوه في قلوبهم، لأنهم أحرار في عقائدهم، أو أن يحرقوه في منازلهم، لأنهم أحرار في بيئاتهم الخاصة، أما أن يطلقوه في أجواء دور العلم ومنابر الجامعة فهذا لا يمكن أن نفهمه بأي حال من الأحوال» [٢] .

ولنتأمل أحوال جامعاتنا الآن !!.

ووصف الشيخ: مصطفى القاياتي بأن ما جاء به د . طه حسين: «قبائح متعددة»، ما بين تكذيب لصحيح التاريخ، وتكذيب لنصوص القرآن، ونسبة التحايل إلى الله وإلى النبي محمد ﷺ، وإلى موسى عليه السلام».

والرافعي يلخص تقويمه لشخصية د . طه حسين .. مع تفنيد آرائه في أسلوب حاد ساخر .. يوجز الحقائق، ويجمل التفاصيل ولكنه يتوسع فيها بعد ذلك عبر مباحث الكتاب مستعينا بشهادات المعاصرين من الباحثين والعلماء والنواب ورجال السياسة المنصفين .

فيقول معللا فساد آراء د . طه حسين فيما يتعلق بالقضايا التي أثارها في كتاب «الشعر الجاهلي» وهي كثيرة:

«وصاحبنا يرجع في ذلك إلى طبع ضعيف لم تحكمه صناعة الشعر، ولا راضته مذاهب الخيال، ولا عهد له بأسرار الإلهام التى صار بها الشاعر شاعرا، ونبغ الكاتب كاتبا.

وماهو إلا ماترى من خلط يسمى علما، وجرأة تكون نقدا، وتحامل يصبح رأيا، «وتقليد للمستشرقين يسميه اجتهادا»، وغض من الأئمة يجعل به الرجل نفسه إماما، وهدم أحمق يقول هو البناء وهو التجديد،وماكنا نعرف على التعيين ما الجديد أو التجديد في رأي هذه الطائفة حتى رأينا أستاذ الجامعة يقرر في مواضع كثيرة من كتابه أنه هو الشك، ومعنى ذلك أنك إذا عجزت عن نص جديد تقرر به شيئا فشك في النص القديم، فحسبك ذلك شيئا تعرف به، ومذهبا تجادل فيه، لأن للمنطلق قاعدتين إحداهما تصحيح الفاسد بالقياس والبرهان:"والأخرى إفساد الصحيح بالجدل والمكابرة " .

د . طه حسين

ثم يحترس الرافعي .. ويزيل هذه المثالب التي شخص بها مسلك د. طه حسين في منهجه وفي شخصيته.. ببعض المعالم الإيجابية التي يتسم بها، وهذا يؤكد أن الرافعي في تقويمه له لم يكن متجنياً، ولا مسفا مثلما كان في "السفود"وهو يهجم على العقاد بكل ألوان السباب .. وفي قلب هذا الهجوم .. تبرق شهب نقدية حارقة لا يستطيع العقاد لها دفعا .. ولكن "الرافعي"مع العقاد لم يكن منصفاً، ولم تكن غضبته للعلم وحده، ولم تكن غيرة على الدين وإنما كانت رد فعل اتسم بالغضب الشديد والانفعال الجارح وكأنه استجابة مباشرة لقانون الطبيعة البشرية، وقوانين الحياة نفسها "لكل فعل رد مساو له في الاتجاه ".

وقصة الرافعي في مواجهة العقاد لها فضاء آخر .. وسياق مغاير، يقول الرافعي ... وهو يضع طه حسين فوق ميزانه النقدي والعلمي،وإنه لولا ضعف خيال الدكتورطه، وبعده من الصناعة الفنية في الأدب، واستسلامه لتقليد الزنادقة، وبعض المستشرقين الذين لايوثق برأيهم ولابفهمهم في الآداب العربية، ثم لولا هذه العصبية الممقوتة التي نشأت فيه من هاتين الصفتين إلى صفات أخرى يعرفها من نفسه حق المعرفة لكان قريبا من الصحة فيما يرى ، ولتدبر الأمور بأسبابها القريبة منها

واستعان عليها بما يصلحها ، ولتوقى بذلك جناية التهجم التي هي في أكثر أحوالها علم الجهلاء ، وقوة الضعفى ، وكياسة الحمقى وعقل المرورين».

ويمكن أن نتهم الرافعي بالمبالغة في اتهام د.طه حسين وإلصاق كل هذه المثالب به .. ولكني أرى أنه أصاب كبد الحقيقة حين وصف صاحب كتاب «في الشعر الجاهلي» بأنه مستسلم لتقليد الزنادقة ، وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآدب العربية.

ولنتأمل دقة الرافعى في التفريق بين الزنادقة.. وبعض المستشرقين حيث لم ينكر الدور الإيجابي الذي قام به المستشرقون في خدمة التراث العربي والإسلامي تحقيقا... وطباعة، وتمحيصا وتدقيقا وفهرسة.. وهي جهود بارزة لاتنكر.. وتحتاج إلى قليل من تصحيح المفاهيم، وكشف مناطق الشبهات، وتحرير بعض الآراء التي تشوهها الترجمات الحرفية التي تحرف المعنى وتقلب الحقائق [٣] .

يقول الرافعي: إن طه حسين استسلم للزنادقة وبعض المستشرقين وهذا كلام صائب ودقيق لأنه حدد هذا «البعض» وهم الذين «لا يوثق برأيهم، ولا بفهمهم في الآداب العربية» .

ومن المستشرقين المنصفين للحضارة العربية والفكر الإسلامي «توماس كارلايل» صاحب كتاب «محمد المثل الأعلى في كل شيء» و «الكونت هنري دي كاستري» صاحب كتاب «الإسلام خواطر وسوانح» و «المستشرق» فرانز روزنثال» والمؤرخ الإنجليزي «برناد شو» الذي يقول ويؤكد أنه «في الوقت الحاضر كثيرون من أبناء أوربا قد دخلوا في دين «محمد» أي الإسلام، حتى يمكن أن يقال: إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ، وأحسن ما يقال: إن القرن الحادي والعشرين لن يمضي حتى تكون أوربا قد اتخذته دينا لها، وعهدت إليه في حل مشاكلها» .

أما المستشرقون الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية ومعهم الزنادقة الذين قلدهم طه حسين - كما يقول الرافعي " .. وكما تشهد بذلك الوثائق العلمية ووقائع التاريخ، وكما انتهت إلى ذلك اللجنة التي فحصت كتاب «في الشعر الجاهلي» وكذلك المحكمة التي أصدرت حكمها بعد اعتذار د . طه حسين وإقراره بأنه مسلم ولم يتعمد الإساءة إلى الإسلام .

وقد انتهى الأمر إلى مصادرة الكتاب وإحالة د. طه حسين إلى النيابة، وحققت معه وانتهت إلى أن هذا البحث ليس من عمل الدكتور، بل سبقه به المستشرقون ومنهم «مرجليوث» المستشرق الإنجليزي، وانتهت هذه القضية بقضها وقضيضها سنة ١٩٢٦م، كما يقول الأستاذ حسنين حسن مخلوف .

وحفظت النيابة الأوراق لعدم كفاية الأدلة ولثبوت حسن النية فيما صدر من د . طه حسين .

ولسنا هنا بصدد معارضة الحكم، ولا التنقيب عن حقيقة معتقد طه حسين .. فهذا أمر لا يعلمه إلا الله وحده .

ومن الحقائق التي تؤكد تقليد طه حسين واتباعه لما قاله المستشرقون .. ما ورد من آثار لهم في دراسة الأدب العربي وتحقيق دواوين الشعر الجاهلي ؟ وحين تصدق هذه الحقيقة .. فإنها أصدق تهمة توجه إلى « عميد الأدب العربي» الذي رفع لواء التجديد، وهو في الحقيقة يلبس مسوح التقليد، ظنا منه بأن الحياة الثقافية لن تكشف هذا الصنيع، أو أنه يضحي بسمعته العلمية في سبيل إرضاء أساتذته من بعض المستشرقين الذين وصفهم الرافعي بأنهم « لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية» وكل هذه الاحتمالات تصب في تيار مضاد لما كان يتوهمه طه حسين، ولكنه أغرى الكثيرين من الباحثين بارتياد هذه الطرق الشائكة التي تجدف ضد التيار .. حتى لو كان هذا التجديف ضد

الثوابت، وضد القيم والأعراف والتقاليد الأدبية والحقائق التاريخية، والثوابت الدينية».

والمستشرقون الذين ردد أقوالهم د . طه حسين .. لم يبتكروا الجديد، وإنما بالغوا، في تضخيم ظاهرة الانتحال - التي أثارها ابن سلام في كتابه « طبقات فحول الشعراء » ووردت هذه القضية على لسان الرواة في تقويمهم لبعض الروايات، ولبعض من رووا الشعر العربي .. وهذا دليل جودة وتمحيص، وتدقيق ورغبة في الوصول إلى النص الأصلي الصحيح .. حيث كانت الرواية منهجا دقيقا من مناهج العرب والمسلمين.

فالمفضل الضبي، يفند حماد الراوية المتوفى سنة ١٩٨ هـ، والأصمعي ينقد خلف الأحمر ويتهمه بالانتحال وقد توفي سنة ٢١٦ هـ، وابن هشام في سيرته ينقد ابن إسحاق المتوفى سنة ٢١٨هـ، وابن سلام يقوم روايات ابن إسحاق وحماد الرواية.

وابن إسحاق يقر بعدم علمه بالشعر .. وهذا الإقرار عده رواة الشعر فضيحة وقد روى أشعارا عن عاد وثمود .

وأبو الفرج الأصفهاني رفض روايات ابن الكلبي عن دريد بن الصمة .

إن هذه الظواهر التي تؤكد حرص رواة الشعر على صحة ما ينسبونه للشعراء لم تؤد بهم الى القول بانتحال معظم الشعر الجاهلي، ولا بالقول إلى أسبقية القرآن . وأن الشعر العربي أتى بعده، لأنه تقليد له في الألفاظ والأساليب، ولا إلى القول بأن الشعر تطور للقرآن كما يزعم المستشرقون.

هذه الظواهر القديمة في قضية الانتحال . دفعت بعض المستشرقين إلى الطعن في صحة الشعر الجاهلي وإلى الطعن في كثير من حقائق القرآن، وحتى نثبت صحة ما ذهب إليه الرافعي نسوق هذه الحقائق التي تكشف عن دور المستشرقين في تضخيم هذه القضية، وتكشف كيف خدع د . طه حسين بهم !!

وكيف جعل نفسه بوقا لهم عن طواعية - رغبة في الظهور - وصدمة للواقع الأدبي، والفكري .

وأول من تناول موضوع الانتحال شيخ المستشرقين الألماني تيودور نولدكه سنة ١٨٦١ أي قبل طه حسين بخمسة وستين عاما .

ولقد استعان بنتائج البحث في اللغات السامية، وما كشفت عنه النقوش الحميرية والسبئية وفي اليمن عموما، وبالمقارنة بما حدث في الآداب الأخرى، الأدب اليوناني وخاصة هوميروس، وفي الأدب الألماني ليسوق الأسباب الدقيقة التي تؤيد وتوسع من نطاق النتائج التي وصل إليها ابن سلام الجمحي بنظرة ثاقبة ولكنها غير مؤيدة بالأسانيد التاريخية .

وبعد ثماني سنوات جاء «ألفرت فلهلم» ليثير الشكوك سنة ١٨٧٢ في مقدمة ديوان «الشعراء الستة الجاهليين» .

وفي سنة ١٩٠٤ م كتب «كليمان هوار» مقالة مغرضة بعنوان «مصدر جديد للقرآن .

وفي عام ١٩٠٥ أصدر «مرجليوث» كتابه عن «محمد وظهور الإسلام، ثم كتب مقالته عن «محمد» في دائرة معارف «الدين والأخلاق»[٤] .

وتوالت الجهود التي تدرس التشابه بين لغة القرآن ولغة الشعر الجاهلي وكتب مرجليوث مقالا عن أصول الشعر العربي عام ١٩١١م، وكتب بحثا في الموضوع نفسه سنة ١٩٢٥ .

ومن القضايا المغرضة التي أثارها «مرجليوث» هي أن الشعر تطور للقرآن، أي أتى بعده .. وهذا أخطر مافي القضية التي قلد كل تكويناتها د . طه حسين.

العلم والدين وشبهات المستشرقين:

ومما يتصل بتقليد طه حسين للزنادقة وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية قضية «الصلة بين العلم والدين» .. حيث يرى أن الدين من نتاج الجماعات البشرية تقليدا لرأي «دور كايم» الذي يقول: «إن الجماعة

تعيد نفسها أو بعبارة أدق «أنها تؤله نفسها ويقول د . طه حسين وهو يتبنى الفكر «العلماني»:

إن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة، وكما ينظر إلى الفقه، وكما ينظر إلى اللباس، ومن حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة في تطورها، وإذن فالدين في نظر «العلم الحديث» ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية، لم ينزل من السماء، ولم يهبط به الوحي، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها .

ثم يرى د . طه حسين في محاولة للتوفيق الملفق بين العلم والدين: «أن من الممكن أن يكون الإنسان ذا دين يؤمن بما يثبته العلم، ويكون عالما لا يقر ما لم يثبته العلم» .

فكل امرئ هنا يستطيع إذا فكر قليلا أن يجد في نفسه شخصيتين ممتازتين: إحداهما عاقلة تبحث وتنتقد وتحلل(*)، وتغير اليوم ما ذهبت إليه أمس، والأخرى شاعرة تلذ وتفرح وترضى وتغضب في غير نقد ولا بحث ولا تحليل وكلتا الشخصيتين متصلة بمزاجه وتكوينه لا نستطيع أن نخلص من إحداهما .

ثم يتصور «طه حسين» الحل التلفيقي للتلاقي بين العلم والدين وهما في رأيه لا يلتقيان !! يقول: «فما الذي يمنع أن تكون الشخصية الأولى عاملة باحثة ناقدة ؟ وأن تكون الشخصية الثانية مؤمنة ديانة مطمئنة طامحة إلى المثل الأعلى؟

ثم يقول: «وأنا أؤكد أن هذا اللون من الحياة النفسية وحده هو الذي يكفل السلم بين العلم والدين»(٥) .

وهذا التقسيم قائم على افتراض مخطئ وهو التصادم بين العلم والدين، والمنهج الإسلامي لا يقول بهذا التصادم .. لأن العلم يكتشف أسرار الله في الكون وفق تفكير منظم، وآليات وتقنيات تتجدد وتتطور حسب تطور الأزمنة .. والبيئات ونظريات العلم ووسائله، والحركة العلمية في ظل الإسلام تؤكد ذلك نظريا وعمليا .

وعلم النفس في أحدث ما انتهى إليه ينقض كلام د . طه حسين في مسألة الذات العاقلة والذات الشاعرة .

وهل التدين بعيد عن «العقل»؟ وهل هو مجرد خواطر وسوانح وتخيلات؟

وأمام هذا التصور الغريب، والموقف المتناقض من «الدين» يقول الرافعي مستظلا براية القرآن، ومتحصنا بأسلحة اليقين ويرد على «طه حسين مفندا رؤيته المتناقضة»: يخلط طه في معنى العلم ومعنى الدين، فيذكر أنهما لا يلتقيان إلا نزل أحدهما للآخر عن شخصيته، ويزعم أن العلم لا يرى الدين إلا قد خرج من الأرض كما تخرج الجماعة، فمتى قطع العلم على أن الجماعة الإنسانية خرجت من الأرض، وقد أخذ مذهب دارون يتصدع ويتخرب على زلازل القلم وانحياز ناموس النشوء عن هذه الجهة الحيوانية.

ومتى كان العلم يبحث في الأديان على أنه علم؟ وكيف له أن يبحث فيها وهو مقصور بطبيعته وتحديد هذه الطبيعة على ما يدخل في باب الأدلة الحسية، ولا وسائل له إلا وسائل الحس المعروفة من البحث والاستقراء والمقابلة والاستنباط، دون ما يتصل بالمعاني العقلية المحصنة مما هو نظري فلسفي كالمعاني التي يرجع إليها الدين . إنه ليس بعلم ما يجاوز تلك الحدود المسورة بأسوار البحث والامتحان بحيث لا تخرج منه النتيجة الصريحة التي برهانها «الحس واليقين دون الظن والجدل» .

ثم يقول الرافعي ملخصا الرد على طه حسين ومنكرا عليه رأيه:

فقول طه مثلا: «إن قصة بناء الكعبة خرافة، وإن إبراهيم وإسماعيل شخصان وهميان لا يعدان علما، بل حمق محض، فإذا اعتذر منه بالعلم أضاف إلى حمقه جهلا، فإذا أصر على قوله واعتذاره زاد على الجهل الحمق والغفلة»[٦] .

وفكر د . طه حسين الدائر في فلك «العلمانية، والذي أدى به إلى التقليد واتباع آراء بعض المستشرقين .. جعله يتعصب لآرائه اقتناعا منه بهذا المنهج ..

وقد اتهمه الرافعي، وحلل موقفه الفكري، ومنهجه «العلمي» القائم على «الشك».

يقول: رأينا عصبية طه على الإسلام تلبس ثلاثة وجوه:

أولها: عقيدته في القرآن وأنه من وضع الذي جاء به لا من وحي ولا تنزيل ولا معجزة .

وثانيها: رأيه في النبي ﷺ وأنه رجل سياسي فلا نبوة ولا رسالة.

وثالثها: عمله في توهين أمر الأئمة من الصحابة فمن بعدهم وقياسهم في الإنسانية وأهوائها وشهواتها على قياس من نفسه وطباعه.

وهذه التهم تحتاج إلى مراجعة ومناقشة وتحليل ولكنها تتوافق مع المنهج الذي تابع فيه د.طه حسين آراء المستشرقين ومناهجهم المادية .

والدكتور طه حسين لم يتابع الردود على ناقديه .. ولكنه كتب إلى مدير الجامعة المصرية موضحا موقفه العام من «الدين» وهو موقف نابع من رؤيته لتكوين الشخصية تكوينا ازدواجيا أو تناقضيا، كما اتضح من أقواله.

يقول: كثر اللغط حول الكتاب الذي أصدرته منذ حين باسم «في الشعر الجاهلي»، وقيل إني تعمدت فيه إهانة الدين، ولم أخرج عليه وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

ولكن الرافعي يفند هذا الكلام في فصول متعددة من كتابه «تحت راية القرآن وهي:

* عصبية طه حسين على الإسلام.
* قد تبين الرشد من الغي.

و «مسلم لفظا لا معنى» وهو من أشد المباحث ضراوة .

والرافعي في المقدمة يقول وهو يرجو أن يتراجع د . طه حسين عن آرائه التي قلد فيها الزنادقة وبعض المستشرقين يقول «وما نريد أن نزيد طه على ما قلنا مما سنقرؤه في هذا الكتاب، ولكنا نرجو أن يهديه الله فيكون من أمته ويعود إليها، فإنه إلا يكن بها لا يكن بغيرها، وإنها إلا تكن به تكن بغيره»[٧] .

وأرى أن الخلاف بين الرافعي وطه حسين يرجع إلى طبيعة منهج كل منهما وطريقته في التفكير .. فالرافعي ينطلق من ثوابت الفكر الإسلامي، ومن الإحساس بقيمة التراث العربي، وعلومه ومناهجه.

والدكتور طه حسين متأثر بمناهج التفكير الغربية، وينطلق من قاعدة منهجية وهي التصادم بين التفكير العلمي، والتفكير الديني مع محاولة التوفيق بينهما في صورة تلفيقية أو خداعية من باب «التقية» .

والجزء الأول من كتاب «تحت راية القرآن» يجسد هذا التصور الذي يؤطر حقيقة الخلاف بين الرجلين فهو خلاف جذري، ومنهجي، وشخصي، وقد تضمن الكتاب ست مقالات في قسمه الأول .. وهي تفصيل لمنهج «الرافعي» ولموقفه من الثقافة الغربية ودعاوي التجديد والمقالات هي:

١ - المذهبان: القديم والجديد.
٢- الجملة القرآنية .
٣- ما وراء الأكمة
٤ - الرأي العام في العربية والفصحى.
٥- تمصير اللغة.
٦- جلد هرة.

وكل هذه المباحث تناقش ماهية القديم .. وماهية الجديد، وماذا نقبل منهما ؟ وماذا نرفض في ظل ثوابت الحضارة العربية، والثقافة الإسلامية: مع

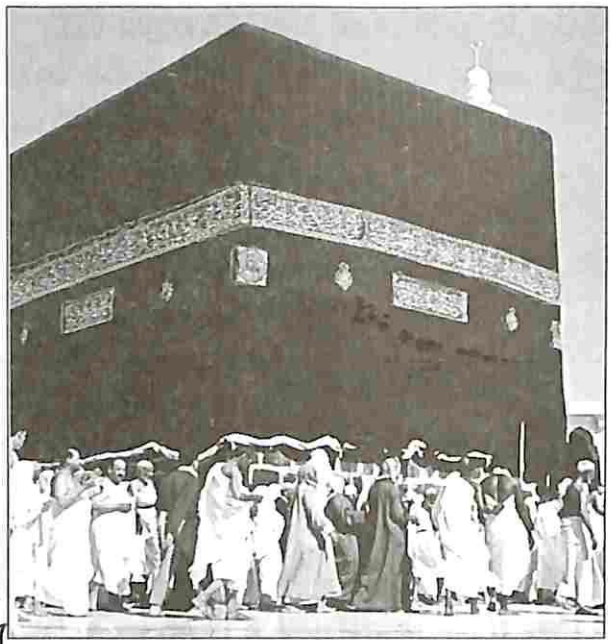

رفض كل ما يتعارض معهما من مكونات الفكر «الأجنبي» وقبول الرؤى والأفكار والمناهج التي لا تتصادم مع مناهجنا وعقيدتنا .

جذور المعركة وبواعثها:

وحين نتأمل ونبحث عن جذور الخلاف بين الرافعي وطه حسين نجد أن طه حسين هو الذي بدأ بالهجوم على الرافعي متهما إياه بالجمود الفكري، وهو اتهام ينطلق من الخلاف المنهجي كما وضحت سابقا.

فالرافعي أسبق في الحياة الأدبية من طه حسين والعقاد.

وبدأ الرافعي بالنقد الأدبي مبكرا وسنه خمس وعشرون سنة، وكتب في «المقتطف» مقالا عن الشاعر محمود سامي البارودي سنة ١٩٠٥م . قال فيه «شاعر فحل مجود، ضيق الفكر، ضعيف الحبك في إبراز المعاني واختراعها .

ولكن طه حسين يبدأ بالهجوم على الرافعي .. ويسخر من منهجه في كتاب «تاريخ آداب العرب» فيقول في صحيفة «الجريدة» سنة ١٩١٢م إنه لم يفهم من هذا الكتاب حرفا واحدا».

وحين ألف الرافعي كتاب «حديث القمر» قرظه الأديب العالم «حفني ناصف»، ولكن د . طه حسين نقد هذا الكتاب نقدا لاذعا .. وقال في تهكم: «إن هذا التقريظ ليس من عمل حفني ناصف، بل من عمل الرافعي نفسه» .

وحين ألف الرافعي «رسائل الأحزان» التي كتبها إثر موقف «مي زيادة» المضاد منه بعد أن توهم أنها تبادله مشاعر المودة والمحبة .. وبعد أن سعى العقاد للوقيعة بينهما. تناول د . طه حسين والعقاد هذه الرسائل بالنقد العنيف، ومما زاد من ألم الرافعي في محنته مع «مي» أنها وقفت كما يقول «حسنين حسن مخلوف»، مع د . طه حسين في بعض ما أخذه على الرافعي ونشرته في مجلة «المقتطف» .

ويقول د . طه حسين في نقده للرافعي ونقد «رسائل الأحزان» نظلم الرافعي إذا قلنا إنه يشق على نفسه في الكتابة والتأليف بل أنت تنصفه إذا قلت: «إنه ينحت من صخر، إن كل جملة من هذا الكتاب تبعث في نفسي شعورا قويا مؤلما بأن الكاتب يلدها ولادة، وهو يقاسي من هذه الولادة ما تقاسي الأم من آلام الوضع».

ويقوم الرافعي بالرد معلنا اشتعال المعركة، واحتدام لهيبها فيكتب في «السياسة الأسبوعية» قائلاً:

الأستاذ الفهامة الدكتور طه حسين: يسلم عليك المتنبي ويقول لك:

وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم

قرأت يا سيدي ما كتبته عن «رسائل الأحزان» مما أتسمَّح في تسميته نقدا، وألمت بالغاية التي أجريت لها كلامك، وما كان يخفى علي أن في الحق ما يسمى تعسفا، وفي النقد ما يدعى تهجما، وفي المنطق ما يعرف بالمغالطة، وفي كل صناعة ما هو انتحال ودعوى وتلفيق .

وانطلق الرافعي من هذه المقدمة الحادة الساخرة إلى التصريح بالهجوم على كتابات د.طه حسين في تاريخ الأدب قائلا: «أفلا تسأل نفسك» لم لم تعجبني كل الفصول التي كتبتها في الأدب وتاريخه، وأنت تتخبط منذ سنين، وتكتب كل أسبوع مرة، فإن سألتها فهل تستخرج من ذلك إلا أن هذه الفصول هي في رأيي خلط مخلوط، تركب فيها الشطط، ثم تعتسف الطريق، ثم تضع التاريخ كما تخلقه أنت لا كما خلقه الله، وتصول على الأموات الذين لا يملكون دفعا ولا ردا ولا حوارا ولا جوابا»(١).

وتحت راية القرآن يظل الرافعي مقاتلا ومدافعا عن قيم الإسلام وثوابته ومعالمه لا يخشى في الله لومة لائم.

وهذه المعركة ما زالت مستمرة .. وما زال الفريقان يصولان ويجولان .. وكل يرفع رايته - ويشهر أسلحته ويعلن حجته - ولكن تبقى كلمة الله هي العليا.

وكما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ (سورة الأنبياء).

وما أروع الكلمات التي وصف بها الرافعي «القرآن الكريم» الذي عاش يستروح نسائمه، ويستظل برايته، ويدافع عن حقائقه، ويحتمي بآياته البينات. ■

الهوامش:

(١) مصطفى صادق الرافعي، حياته وأدبه، حسنين حسن مخلوف.
(٢) ص٣٨٨، تحت راية القرآن للرافعي.
(٣) انظر في هذا الموضوع «إعادة قراءة القرآن لجاك بيرك»، وردود د.محمد رجب البيومي، إصدار دار الهلال.
(٤) انظر ذلك بالتفصيل في كتاب «أصول الشعر العربي لمرجليوث»، ترجمة د. يحيى الجبوري.
(*) يعلق الرافعي قائلا بين قوسين «يعني وتكفر»!!!
(٥) انظر ص ٣٥٣ - ٣٥٤ تحت راية القرآن.
(٦) تحت راية القرآن ٣٥٦-٣٥٧.
(٧) ص ١٠ تحت راية القرآن.
(٨) انظر: مصطفى صادق الرافعي، حياته وأدبه، حسنين حسن مخلوف..

لقد أدى الرافعي رسالة كبرى في معركته الفكرية الواسعة، دفاعا عن اللغة العربية وأصالتها ودفاعا عن الإسلام وقيمه الغالية وحضارته الخالدة، وقرر في معظم كتاباته أن الحل الإسلامي هو الحل الصحيح لمشاكلنا، لكن ما معنى مؤامرة الصمت التي تقف اليوم إزاء تراث الرافعي العريق، أهي جزء من المؤامرة الشاملة ضد الإسلام وأهله في هذا العصر؟ أم هي مخلب من مخالب الغزو الفكري الذي يأبى إلا أن يطمس الحقائق النيّرة الباهرة في تاريخنا الإسلامي المعاصر؟؟

نجيب الكيلاني